والحبشي الى نصره ؛) فقام اليه معاذ بن جبل (رض) فأخذ بتلبيبه (أي بما على لببه ونحره من الثياب) ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره بمقالته ، فقام النبي صلى الله عليه وسلم مغضباً يجر رداءه حتى أتى المسجد ثم نودي : أن الصلاة جامعة — وقال صلى الله عليه وسلم : « يا أيها الناس ان الرب واحد ، والاب واحد ، وأن الدين واحد ، وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم ، وانما هي اللسان ، فمن تكلم بالعربية فهو عربي » فقام معاذ ، فقال : فما تأمرني بهذا المنافق يا رسول الله ؟ قال : « دعه إلى النار » فكان قيس ممن ارتد في الردة فقتل .

أرأيت لو ظل المسلمون على هذه التربية المحمدية أكان وقع بينهم من الشقاق والحروب باختلاف الجنس واللغة كل ما وقع وأدى بهم الى هذا الضعف العام ؟ ...

يعترض بعض أولي النظر القصير والبصر الكليل على توحيد اللغة في الشعوب المختلفة بأنه خلاف طبيعة البشر ، ويرد عليهم بان توحيد الدين أبعد من توحيد اللغة عن طبيعة البشر ، ان أريد بالبشر جميع أفرادهم ، وان الحكماء ما زالوا يسعون لجمع البشر على لغة واحدة مشتركة مع علمهم أن ترقي بعض اللغات بترقي أهلها في العلوم والفنون والسياسة والقوّة يستحيل معه أن يرغبوا عنها الى غيرها ، ولم يسع أحد منهم لجمعهم على دين واحد ؛ وأن القرآن الذي شرع توحيد الدين مع شرعه ولغته لجميع البشر قد علمنا أن حكمة الله تعالى في خلق الانسان تأبى أن يكون الناس كلهم أمة واحدة تدين بدين واحد (١١ : ١١٨ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم) وانما دعاهم الى هذه الرحمة ليقل الشقاء الذي يثيره الخلاف فيهم — هذا الخلاف الذي جعل أعلم شعوب الارض وأرقاهم في العمران يبذلون في هذا العهد أكثر ما تستغله شعوبهم من ثروة العالم في سبيل الحروب .

دعا الاسلام البشر كلهم الى دين واحد يتضمن توحيد اللغة وغيرها من مقومات الامم فكانوا يدخلون فيه أفواجاً حتى امتد في قرن واحد ما بين المحيط الغربي الى الهند ولولا ما طرأ عليه من الابتداع ، وعلى حكومته من الظلم والاستبداد ، وعلى شعوبه من الجهل والفساد ، والتفرق بالاختلاف ، لدخل فيه أكثر البشر ، ولصارت لغته لغة لكل من دخل في حظيرته من الامم ، فمن غرائزهم اختيار الافضل اذا عرفوه .

الوصف

للاستاذ عز الدين التنوخي[1]

ان الوصف في لغتنا العربية لا يزال معظمه بعيداً عن التخصيص والتميز فهو لا يصور لك الموصوف تصويراً يميزه عن سائر اشبابه ونظائره ، فتراه كما يقول صاحب الصناعتين نصب عينيك ، ما بين يديك ، فاذا سمعت شاعراً يصف لك دمشق مثلا ، ولم يذكر لك اسمها ، تحار في الموصوف ، فتحسبه يصف لك القاهرة او بغداد او طهران ، لجواز اتصاف القاهرة المعزية ، او مدينة السلام او طهران العجمية ، باوصاف دمشق العربية ، كذلك اذا سمعت من ضروب الوصف مديحاً اورثاء او هجاء ولم يذكر لك الممدوح او المجروح ، لم تعرفه مهما حذقت الكهانة ، لانه لم يوصف بالاوصاف الخاصة ، والفوارق المميزة التي تخرجه من زمرة اشكاله وامثاله وهلم جرا من الموصوفات في لغتنا التي لا يخصصها ما اختصت به من سمات ، ولا يميزها عن اشباهها ما امتازت به من صفات ، وانك لترى الشاعر

[1] الثقافة

او الناثر اذا كان اكثر من الاوصاف المزوّقة لا المحققة جمح به الوصف الى الغلو والاحالة ، مما يذهب ببهجة القول ، ويطفئ نور الحق ، ويبطل سحر البيان ، خذ لك مثالا على ذلك قول الطغرائي يصف محمد بن ملكشاه السلجوقي ، وقد عثرت على هذا القول اتفاقا :

لجلال قدرك تخضع الاقدار
وبيمن جدك يحكم المقدار
ولك البسيطة حيث مد غطاءه
ليلٌ ، وما كشف الغطاء نهار

إلى أن يقول :

عم البرية والبسيطة عدله
فالخلق شخص والبسيطة دار
شكراً فقد آتاك ما لم يؤته
احداً سواك الواحد القهار

اصحيح ذلك ؟ وهل يقول الحق اذ يقول :

تعطي وتمنع من تشاء باذنه
فبكفك الارزاق والاعمار
تتفاوت الاقدار ما بين الورى
فاذا ذكرت تساوت الاقدار
واسوت جرح الحادثات وطالما
كنا وجرح الحادثات جبار

فهل صدق ليت شعري الطغرائي بهذه الصفات التي من جملتها اسو جرح الحادثات ام ان اعذب الشعر اكذبه ، واعجبه اغربه ؟

واذا خطر لكاتب ان يصف بلدة قال مثلا : بلدة ترابها عبير وحصباؤها عقيق وهواؤها نسيم وماؤها رحيق ، كوكبها يقظان ، وجوها عريان يومها غداة وليلها سحر ، وما اشبه ذلك من التفاهة والهذر ، وتراه في وصف الحصن يقول : حصن كأنه على مرقب النجم ، ومجير من القدر الحتم ، يحسر دونه الناظر ، ويقصر عنه العقاب الكاسر ، يكاد من علوه يغرف من حوض الغمام ، انتطق بالجوزاء وناجت بروجه ابراج السماء ، ونحو ذلك من « الخرط » والهراء ، هذا والحصن طبقة او طبقتان من البناء ، فكيف وما ذا ليت شعري نقول لو اردنا ان نصف نواطح السحاب من الابنية الامريكية وهي طبق فوق طبق ، وقد تبلغ او تتجاوز حد الاربعين من الطبقات فتنطح بالفعل الغيوم ، وتكاد تصعد لتتحلى بالنجوم !

ثم اذا هم بوصف دار سرية لم يستعمل من التعابير الا ما لا معنى له مما يخصص دارا ، ولا يصور منها شرفة ولا جدارا ، ولا يذكر لها حيا ولا جوارا ، كقوله مثلا :

دار تخجل منها الدور ، وتتقاصر لها القصور ، هي دائرة الميامن ، ودارة المحاسن ، قد اخذت اداة الجنان ، وضحكت عن العبقري الحسان ، يخدمها الدهر ، ويأويها البدر ، ويكنفها النصر وهلم جرا .

واذا اخذ في وصف روضة صورت فيها يد المطر ابهج الصور قال : روضة كالعقود المنظمة ، على البرود المنمنمة ، نشرت طرائف مطارفها ، ولطائف زخارفها ، فطوي لها الديباج الخسرواني ، ونفي معها الوشي الاسكندراني كانما احتفلت لوفد ، او هم من حبيب على وعد . كلام طليّ مزخرف معسل ، ولكنه لا يبلغنا من الوصف المأمول !

فالوصف عندنا لا يقصد من اكثره على الغالب الا الثناء والاطراء او الازراء والهجاء ، لا تخصيص الاشياء وتمييزها عن اشباهها تمييزاً يزيل كل لبس ، ويرد الراحة الى النفس ، على ان لكثير من نوابغنا من الوصف الدقيق الرائع ما يكاد يستوفي شرائطه فيمثل الموصوف لعين القارئ فيصدق عليه انه احدى الرؤيتين .